رهوزا والجزار والضحية

قصة بقلم سليمان فياض

... الليلة الاولى . انعطفت يسارا من شارع الى شارع . وحدقت عيناها تبحثان عن كلاب البدو في الظلام . ونبحتها الكلاب من كل ناحية . فأجفلت . ونظرت الى باب البدو ، ولكن الباب كان مغلقا . وزكمتها رائحة الجمال الباركة في المراح . وفكرت ان تجلس حتى لا تهاجمها الكلاب . لقد فعلت ذلك عندما كانت صغيرة . وفكرت ان الكلاب لا تفعل شيئا سوى النباح. فواصلت سيرها . وسكتت كل الكلاب عن النباح ، فابتسمت في سرها . كان بينها كلب صغير يهز ذيله دائما ، ويتقدم الكلاب الكبيرة محاولا ان يتفوق عليها ..

***

... ومع ان الليلة كانت صيفية ، لم يكن ثمة صوت ولا ضوء . وكل الابواب كانت مغلقة ، فالقمر لم يكن طالعا . وشعرت بالبهجة ، لان الناس نيام ، ولانها تمشي وحدها في ليلة صيفية ساكنة . كانت عيناها تثقبان الظلمة ، فأبصرت جالسا على عتبة البيت ، مسندا ظهره الى الجدار ، وساقاه منفرجتان وسيجارة متقدة تلمع في يده . تنهدت بقوة وضاعفت طرقعات الشبشب في قدميها ، فاستدار جهتها . وراح كلاهما يرقب الاخر . شاهدته يتحرك بهدوء نحوها . وسمعت همسه :

ـ نبوية

نظرت نبوية امامها ، وابتسمت . وبدت كأنها تجري . ولحق بها ، وامسك بيدها . واحست بلمس كفه على ساعدها ، فارتجفت اعلى واسفل . واستلقت يدها الاخرى دون مقاومة ، وادارت رأسها نحوه ، فدهمتها انفاسه الحامية ، واخذ صدرها يعلو ويهبط . وقالت له بعد شهقة :

ـ انت ؟ رشاد .

ـ تعالي ..

وجذبها من يدها . وتبعته . حاولت ان تقاوم ، فهمست :

ـ لا ، لا ماذا تريد ؟

وخطى بها عتبة بيته قائلا :

ـ تعالي . لا تخافي . اريد ان اكلمك

اصبحت معه في الصالة . فقالت بمكر :

ـ الله . ليس عندك نور

ومد يده الاخرى ليغلق الباب . فصاحت هامسة :

ـ لا . لا . لا تغلق الباب . ليس الليلة .

كاد ان يضحك . ولكنه قال لها :

ـ لا تخافي . لا تخافي يا نبوية

واغلق الباب . وقال لها:

ـ اتريدين ان يمر احد ، ويرانا معا ؟

راحت هي ترقبه . لم تشعر بادنى رغبة للاعتراض ، فقالت باستسلام :

ـ طيب . دع يدي .

فترك يدها ، وقال :

ـ تعالي . سنتكلم في الحجرة . تعالي

وتبعته في الظلام . وقال :

ـ لحظة . ساوقد المصباح

فصاحت محذرة :

ـ هس . الشباك على الحارة !

واضافت :

ـ رشاد . لا توقد المصباح .

ـ امرك يا نبوية .

ورأته في العتمة ، يفرد الحصيرة ، ثم المرتبة ، ويسوى الوسادة . وبينما كان يقف ، قال لها :

ـ تعالي . اجلس بجواري .

ـ رشاد . دعني . ماذا تفعل ؟

وراح صوته يلهث ، وهو يقترب من اذنيها ، قائلا :

ـ لا شيء . لاشيء يا نبوية . اني احبك . احبك جدا .

استمدت من اشواقه قدرة ما على ان تتمنع ، فابعدته برفق ، وقالت بفتور :

ـ رشاد . هذا ما اردت ان تكلمني فيه ؟.. اريد ان اذهب

فتوسل اليها :

ـ نبويه . لم ارك منذ شهور يا نبوية .

هزها شعوره بالحاجة اليها . ودت لو ترتمي على صدره . ولكنها قالت بالفتور نفسه :

ـ ليس منك فائدة .

فهمس مستنكرا :

ـ انا ؟ .. ليس مني فائدة . طيب

وحاول ان يقترب منها . لكن يدها صدته مرة اخرى . وهمست لنفسها :

« هل .. تقولين له يا نبويه ؟ .. لن يفهم وحده ابدا »

وخشيت ان يقول لها : « لا » ، فسكتت ، وانتظرت . وقال لها :

ـ تعالي . سنجلس معا .

ـ لا . اريد ان اذهب

واحس بتشجيع ما في صوتها ، فمد يده اليها . وقالت هي :

ـ ساصرخ

وقبل ان تضحك ، قال له :

ـ دعني .. ابني في البيت وحده .

ـ ابنك ؟ .. انه الان ياكل خبزا مع الملائكة !

وضحكت . وضمها اليه بقوة . فهمست :

ـ قلت ساصرخ .

ـ اصرخي اذا شئت . لن اتركك ابدا .

وشعرت كأنها تختنق ، فاستقبلت شفتيه بين عنقها ، وراحت تبحث عن نسمة هواء ، وطافت برأسها صورة لواحدة تسبح ، ورأسهـا فوق الماء ...

***

... كان المصباح يلقي ضوءا خافتا ، ورشاد يحجب خصاص النافذة بملاءة بيضاء ، ثم تمدد بجوارها . وفتحت هي عينين حالمتين ، نفيضان سعادة . كان وجهها ورديا ما يزال في عينيه ، يتألق حيوية . وشعرها مجدول نفوح منه رائحتها . واخذ كلاهما ينظر في عيني الاخر . كان هو ساكنا تماما . وفكر رشاد :

« آه . اللعينة . احس بها تسري تحت جلدي مباشرة »

وتنهد . ولم يقل لها ذلك . وتنهدت هي بدورها . وزام هو برضى . عادت اليه نفس الفكرة القديمة ، فقال لها :

ـ نبوية . ما رأيك لو تزوجنا ؟

خفق قلبها بشدة . لكنها آثرت ان تقول :

ـ نتزوج ؟ .. وامين ؟

تضايق لحظة لقولها . وآثر ان يقول بدوره :

ـ امين يعيش معنـا . لكن ..

وسكت . فقالت بلهفـة :

ـ لكن . الديـك مانـع ؟

فقال محاورا :

ـ لالا . هل تحبينني حقا ؟

ـ سل نفسك . لماذا دخلت بيتك ؟ .. هل تحبني انت ؟

ـ طبعا احبك . احبك حقا يا نبوية . واذا كنت انت تحبينني . هل تكتبين لي ، بيعا وشراء ، الفدان الذي تملكينه ؟

شهقت هي دون صوت . حدث ما كانت تتوقعه . وجلست ، وغطت ساقيها بثوبها حتى القدمين . وقالت بانكسار :

ـ وامـين ؟

ـ امين لم يترك له ابوه شيئا .

ـ انه ابني يا رشاد . وعندما يكبر . هل يعمل اجيرا ، مثلي عندما كنـت طفلـة ؟

ـ لا . سيزرع الارض معي .

ـ افهمني يا رشاد . عندما يكبر ، ويتزوج . عندما نموت انا وانت .. هل يصبح اخوه ، منك ، يملك ارضا ، وهو لا يملك شيئا ؟ لا يملك ابدا؟

وقال رشاد لنفسه :

« بنت اللعينة . وتزعم انها تحبني »

وتنهد بعمق . وقال لها باسى :

ـ اذن . سأظل لصا . اعيش من السرقة ، انا وانت .

وقالت نبوية لنفسها :

« ماذا اصنع معه ؟ .. انه لا يفهم ابدا »

وقالت له بحماس :

ـ من قال لك ذلك ؟ .. سنترك هذه المهنة ، ونزرع الارض معا ، ونؤجر ارضا اخرى من غيرنا ، و .. بعد عده سنوات ، نشتري ارضا اخرى ، تكون ملكا لك انت !

واضافت قائلـة :

ـ لهذا السبب وحده ، رفضت ان اؤجر ارضي لزوج اختي .

ـ ولكن ماذا يحدث لو صار الفدان ملكي انا ، ويصير لاولادنا بعدموني؟

فنفخت نبوية . وهزت رأسها بحزن . وقالت :

ـ اتعرف يا رشاد . حاول زوجي قبلك هذه المحاولة . ووقفت في وجهه . وعندما مات ، اصبح هم كل رجل في البلدة ان يتزوجني ، يتزوجني من اجل الفدان والبقرة . حتى المتزوجون منهم يا رشاد . حتى الذين يملكون افدنة عديدة . حتى انت . الم اقل انه ليس منك فائـدة ؟

وبدا رشاد حزينا لكلماتها ، حين جلس ، وطأطأ برأسه . وقال :

ـ الا تثقين بي ؟... اني اقول لك ..

فقاطعته محتجة :

ـ اثق بك ؟ .. انا لا اثق برجل الا حين يكون معي لانه .. انت تعرف لماذا . ولكن في النهار . في النهار يا رشاد .

ـ نبوية . لا تقولي ذلك . الا تثقين بي يا نبوية ؟ .. الا تثقين بي ؟

فقالت بفتـور :

ـ لا . لا اثق باحد . حتى نفسي !

فقال هو بحزن :

ـ اتخافين ان انقلب عليك يوما ؟ .. لن افعل ذلك ابدا . انني فقط ، لا اتحمل ان يقول الناس عني ، مثلما كانوا يقولون عنه . كانوا يقولون : زوجته تطعمه . ولولاها لكان اجيرا . وسوف يقولون عني ايضا : ولولاها لظل لصا .

وصمت . وطال صمته . حتى اكدت هي لنفسها :

« البغل . لا يمكنه ان يفهم . لا يمكنه ابدا »

ونقبت في رأسها عن مدخل اخر ، تنفذ منه الى قلبه . فقالت برقة :

ـ رشاد . الليلة جاءت زوجة الحاج محمد ، وانا عند اختي .

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ جاءت توسط اختي لدي ، حتى لا اقبل الزواج بزوجها . واكدت لي انه يريد ان يتزوجني لكي اكتب له الفدان ، وبعد ذلك ، يطـرد ابني او يطلقني .. او ..

قاطعها رشاد . وقال بلهفة :

ـ هيه .. وماذا قلت لها :

ـ طمأنتها طبعا . ولكن هو . انه يطاردني : يوقفني في الشارع ، وياتي الى البيت ، ويحدثني دائما ، ويلح على ، ويؤكد انه يريد ان يتزوجني ليحميني ، وليس من اجل الفدان .

فصاح رشاد بحدة .

ـ كذاب . كذاب . انصدقيه يا نبوية

فقالت مؤكدة :

ـ طبعا يا رشاد . كيف اصدق رجلا متزوجا له اربعة اولاد ، واكثر من ذاك يقتل من يقف في وجهه ؟ انت لا تعلم يا رشاد ، كم هو ثقيل الدم على قلبي

فقال باشفاق :

ـ نبوية . اني خائف عليك . سيدمرك الحاج محمد .

صاحت هي بغضب :

ـ يدمرني انـا ؟ .. اني ازرع الارض منذ عامين وحدي . والكـل يعرف انني امسك المحراث بيدي ، واحمل الحمار ، واعلق البقـرة في السافية .. و ..

قاطعها رشاد قائلا :

ـ نبوية . لا تنسي انك امرأة . امرأة امام رجل مثله يا نبويه !

هدأت نبوية آنئذ . وصمتت . ثم قالت بضعف :

ـ صحيح . ولكن .. احببني حقا ؟

ـ احبك ؟ .. احبك جدا يا نبوية .

ـ حتى ولو لم نتزوج .

وتردد قليلا . ونظرت في عينيه . فخفضهما . وقال :

ـ ولو لم نتزوج يا نبوية .

وقالت هي نصف مصدقة :

ـ ستحميني من الحاج محمد ؟

فقال بحماس :

ـ ساقتله اذا مسك باذى . ولو دخلت السجن مرة اخرى .

تنهدت نبوية براحة . وهمت بالوقوف . وقالت لنفسها :

« سنتزوج حتما »

وقال لها رشاد :

ـ ستذهبين . الن نتزوج ؟

كانت قد بلغت باب الحجرة . فقالت :

ـ لا . بشروطك لا ..

ثم قالـت :

ـ قم افتح باب البيت . وانظر . هَل سيراني احد ؟

وقام رشاد . وفتح الباب . ونظر حواليه يمنة ويسرة . ثم قال لها :

ـ لا . ليس من احد !

وانسلت هي من الباب . واشعل هو سيجارة . وجلس عند عتبة الباب . واخذ يرقبها حتى غابت عن ناظريه . كان يتشمم رائحة جسدها في بطن كفـه .

***

... كانت نبويه تقترب من بيت الحاج محمد . وتجول عيناهـا في الشارع . ابصرته جالسا قبالة بيته مقعيا ، وخيزرانته في يده . ولمحته يتجه برأسه ناحيتها ، فأسرعت في مشيتها . وفكرت انـه سينهال عليها ضربا بالعصا ، وربما سألها بصوته الغليظ : « ايـن كنت ؟ » وقالت لنفسها :

« اتراه يعرف انني كنت عنده ؟ »

واذ صارت بمحاذاته تماما . رأته يقف . ومرقت بجواره قطه ، فضربها بعصاه ، فماءت القطة بشدة ، وقفزت امام نبوية وهي تجر نصفها الخلفي . ولحق بها الحاج محمد . وقال لها بصوته الغليظ :

ـ مبروك عليك الليلة .

وتركها . واطلق ضحكة طويلة ، خافتة ، وراءها . دار بخاطرها ان شتمه . ولكن الوقت كان متأخرا . وكانت هي عائدة من عند رشاد ، والعصا في يده . وسمعت وهي تبتعد صرير باب بيته يخرق اذنيها .

... ودخلت نبوية بيتها . فسمعت :

ـ نبوية . هل جئت يا ابنتي ؟

ونظرت نبوية الى فجوة مربعة في الجدار . كان صوت الجاره يصل اليها عبر الفجوة . وقالت نبوية :

ـ نعم يا حاجة .

وجاءها الصوت عبر الجدار :

ـ نهون يا ابنتي . كل مصيبة تهون يا ابنتي .

خفق قلبها بشدة . وادارت مفتاح المصباح بسرعة ، فتزايد الضوء في الصالة . وشاهدت ابنها نائما بجوار الفرن ، يتقلب امام عينيها ، فهدأت وقالت :

ـ خير يا حاجة . ماذا حدث ؟

ـ ارأيت ما حدث للقطن والذرة يا ابنتي ؟

فقالت نبوية بلهجة باردة كالثلج :

ـ ماذا حدث لزرعي يا حاجة ؟

ـ الا تعرفين يا نبوية ؟ .. قطعوا زراعتك يا ابنتي . اخبرني اخي وانت غائبة

تهاوت نبوية جالسة بجوار ولدها . ولم تنطق بكلمة ، حتى جاءها الصوت :

ـ الا تعرفين يا نبوية ؟.. الناس كلهم يعرفون .

فاجابتها نبوية بذات اللهجة الباردة :

ـ آه . عرفت ذلك يا حاجة .

ـ جازاهم الله اولاد الحرام . اعذريني يا ابنتي . انت تعلمين انني لا استطيع السير بسبب سني . ولولا ذلك لجئت اليك ..

لم تسمع نبوية حرفا مما قالته الجارة . كانت آنئذ تسمع صوت الحاج محمد داخل رأسها : « مبروك عليك الليلة » ، وكانت تقول لنفسها:

« كان يعني تقطيعه للزرع اذن .. هو وحده الذي عملها يا نبوية »

وقامت نبوية . وخطت نحو الحائط . وأزالت عنه طبقة من الطين ، اسفل الفجوة . فبانت لها كوة معتمة ، اخرجت منها صرة ، وفتحتها . وقالت في نفسها :

« لن نموت جوعا يا امين هذه السنة . ما يزال توفير العمر معنا . كنا سنشتري به ارضا ، ولكننا الان سنأكل منه يا بني »

واعادت نبوية الصرة مغلقة الى القوة . وفكرت انها ستغلق الكـوة في الصباح بالطين . وعادت لتجلس بجوار ابنها ، تنظر الى وجهه مرة ، والى زجاجة المصباح مرة . وراحت تخاطبه بعينيها :

« فعلوها يا امين . فعلوها وامك مع بغل . لكنهم كانوا سيفعلونها ايضا وانا نائمة بجوارك . متى تكبر يا بني ؟ »

ولم تجد دمعة في اي من عينيها . وفكرت ان اباها قد مات بعـد امها ، وانه كان اجيرا ، واصبح مالكا لفدانين . وقالت لنفسها :

« شقي ابي كثيرا حتى اصبح مالكا . هل آتي انا وابعثر عرقـه في التراب ؟ »

وفكرت ان اختها تزوجت من رجل ، هو الاخر مثلهما ، ليس له عائلة يمكنها ان تحمي اخت زوجته . وفكرت ان تذهب الى رشاد ، وتروي له ما حدث . ولكنها قالت لنفسها :

« ماذا يمكنه ان يصنع لي ، ولم نتزوج بعد ! »

ولمحت نبوية فأرا يهز لها ذيله اعلى الفجوة ، ثم يغيب داخلها . وشاهدت « عرسه » نمرق من تحت عقب الباب ، وتغيب داخل الفرن . وتبعتها اخرى واخرى . فجاءت بمكنسة ، وراحت تترصد كل عرسه تحاول العودة ، وتنهال عليها ضربا حتى تقتلها ، ثم انفجرت تبكي . وجاءها صوت الجارة :

ـ البكاءليس منه فائدة الان يا ابنتي . لكن . لو كان لك رجل لما

حدث ما حدث يا نبويه . نامي الان يا ابنتي .

كفت نبوية عن البكاء . وراحت تفكر انه لو كان لها رجل حقا لما حدث ما حدث . بل لما حدث شيء ابدا . ومر برأسها خاطر : لقد فعلت كثيرا مما يفعله الرجال ، ولو انها فعلت اشياء اخرى ، لاصبحت رجلا يعمل حسابه الحاج محمد . وسمعت صوت رشاد يقول لها باشفاق: « نبوية . اني خائف عليك . سيدمرك الحاج محمد » . وغلى دمها في عروقها . فقامت وتناولت علبة الكبريت . وبللت خرقة بالبترول . وخافتت من ضوء المصباح . وفتحت الباب . واغلقته بالمفتاح . وسارت حافية القدمين .

... كان الجرن مليئا . بمحصول القمح . ينتظر الدراس . وبين الاكوام ، كانت دائرة من القمح ينام فوقها طه ، ابن الحاج محمد . وتطلعت نبوية حواليها . ثم وضعت الخرقة في اكبر كومة . واشعلت عود ثقاب في الخرقة . واسرعت عائدة على شاطىء المصرف الصغير . وانحدرت في طرقات القرية . وبافت باب البيت . فسمعت صوت المؤذن يملأ سماء القرية . ودهشت حين سمعته يقطع تراتيل الفجر زاعقا : « حريقة . حريقه . حريقه » . ولكن نبوية كانت قد فتحت الباب ، واغلقته بهدوء . وسمعت صوت الجارة يأتيها عبر الجدار :

ـ نبوية . نبوية . حدثت حريقة يا نبوية .

لم تجبها نبوية . ذهبت وتمددت بجوار ولدها . ولزمت الصمت ، حتى جاءها الصوت :

ـ نبوية . اين ذهبت يا نبوية ؟

فردت عليها نبوية متناومة :

ـ نعم .. نعم يا حاجة .

ـ انت هنا ؟..الحمد لله يا ابنتي !

ـ ماذا حدث يا حاجة ؟

ـ الاتسمعين ؟ .. حدثت حريقة يا ابنتي !

فقالت نبوية وهي تبتسم ، ولهجتها باردة تماما :

ـ آه .صحيح. سيطفئونها حتما . حصل غير يا حاجة .

ونامت نبوبه ، دون ان تنصت لحرف من كلمات الجارة .

***

.. الليله التالية . عادت نبوية من عند جارتها . وادارت مفتاح المصباح . فانتشر الضوء ملغيا الظلال على الجدران . كان امين قد نام . فظلت جالسة وحدها ، ترقب الذين يأتون من الظلام ، ويعبرون رقعة الضوء الملقى من بيتها على ارض الحارة . وراته قادما . لم يعبر رقعه الضوء . وانما وقف لحظة بالباب ينظر حواليه . ثم دخل بسرعة. واغلق الباب وراءه . فوضعت اصبعها على فمها محذرة . ونظرت الى الفجوة اعلى الجدار . وتقدم منها . وهمس في اذنها :

ـ هيا بنا نتكلم

ـ ابن يا رشاد ؟

ـ في المزارع ، بعيدا .

وفكرت نبوية انه قد جاء ليتزوج منها ، فهمست :

ـ في اي شيء سنتحدث ؟

ـ تعالي . ستعرفين . تعالي .

ـ طيب . انتظرني عند المصرف الصغير .

فقال رشاد بشك :

ـ ستاتين ؟

لم تقل نبوية شيئا . نظرت اليه فقط بعتاب ، وفتحت الباب قليلا ، ودارت حواليها بعينيها . واكملت فتحة الباب . واسرع رشاد بعيدا عن البيت . واحكمت نبوية طرحتها حول رأسها ، واغلقت الباب بالمفتاح، ووضعته في صدرها .

... رأته نبوية واقفا تحت شجرة سنط ، فعبرت اليه قنطرة المصرف الصغير . وسار رشاد بجانبها . وسارا مسرعين . ثم هدأت خطواتهما . وقالت له آنئذ :

ـ هه . خير يا رشاد . فيم تريد ان تحدثني ؟

فقال رشاد بصوت ناعم تماما :

ـ ادرت المسألة في رأسي .

ـ اي مسألة ؟

ـ مسألة زواجنا يا نبوية . انا احبك . وفهمت انني مخطيء اذ طلبت منك ..

تزايدت دقات قلبها . وصعدت دماء غزيرة الى وجهها . بينما قال لها:

ـ انت تعرفين . انا احبك حقا . ولا استطيع ان اعيش بدونك . ولذلك سنتزوج .

ومدت يدها . وامسكت بيده في رضى . ووقفا معا . كان رأسه محنيا امام عينيها . فراحت ترشف بعينيها كل جزء فيه : وجهه الاسمر. تقاطيعه المليحة . قصة شعر تنتصب فوق جبينه . طاقيته الصوفية المائلة بدلال على جانب رأسه . وقالت بفرح :

ـ صحيح . سنتزوج . رشاد . سنتزوجني . انظر في عيني .

نظر رشاد في عينيها بسرعة . كانت في عينيه بسمة غريبة لم تسترح لها . ولكنها قالت :

ـ يا شقي . اتخجل مني ؟

وضحك هو . كانت ضحكته فاترة . وقال لها :

ـ انا . لا. لا. ابدا !

وواصل سيره . فسارت بجواره . كانت ظلمة المزارع خفيفة حولهما. وبدأت تنصت لنقيق الضفادع . ثم قالت له :

ـ رشاد . اسمع ؟ .. يقولون ان ذكور الضفادع تنادي على اناثها .

ضحك رشاد ضحكة باردة . وقال لها :

ـ الناس يتحدثون عنك يا نبوبة .

ـ عني ؟.. ماذا يقولون يا رشاد ؟

ـ يقولون ان امرأة قهرت الحاج محمد . .

فقالت بلهفة :

ـ ولكنك ستزوجني وتحميني يا رشاد . قل . ستحميني ؟

ـ احميك ؟ .. ومن يحميك غيري يا نبوية ؟

جاءها صوته فاترا . وفكرت انه الان بعيد عن الفراش . وربما كان صوته هكذا ، حين يكون بعيدا عنه . وقال هو :

ـ نبوية . الحاج محمد لا يقدر الان ان يواجه احدا . الناس يضحكون منه في كل مكان .

ـ صاحت هي بانفعال :

ـ لكنه هو الذي بدأ يا رشاد . كان لا بد ان ارد عليه حتى يكف عن محاربتي . وانت تعلم انه يفعل ذلك ليتزوجني يا رشاد .

ـ الم اقل انه سيدمرك يا نبوية ؟

دق قلبها في صدرها بعنف . كانت يده الان باردة في يدها . وتوقفت عن السير ، وقالت :

ـ لقد ابتعدنا كثيرا . هيابنا نعود يا رشاد .

ورأته يتحسس الناحية اليمنى من صدره ، ويقول لها :

ـ نعود . لا. لا. ليس الان

ـ رشاد . انا خائفة . احمني يا رشاد .

ـ اني احميك الان . هيه . الست رجلا بجوارك .

وقفز الى رأسها مشهد . فقالت :

ـ رشاد . اتعرف كلاب البدو

ـ آه . مالها ؟

ـ اني اسمعها الان تنبح . لماذا لا يريحون البلدة منها ؟

وضحك رشاد ذات الضحكة الفاترة . ولم يجب . وقفز الى رأسها مشهد اخر . فقالت :

ـ رشاد . اليوم ، عند العمدة ، اخذك الحاج محمد في يده . ونظرت انت الى . ثم سرت معه . رشاد .. هل . . هل انت معه ؟

وصاح هو بفزع :

ـ نبوية . ماذا تقولين ؟ .. انا معه ؟.. انا معه عليك ؟

احست بالحرج ،فاسرعت تطيب خاطره :

ـ لا تغضب مني . انا اثق بك . ولكن الشيطان يلعب احيانا في رأسي .

وسارا معا هادئين . واحست بعينين داخل رأسها ، فحدقت فيهما بكل قوتها . كانتا عينا رشاد ببسمتهما الفاترة . وتسلل الخوف الى قلبها . وآثرت ان تصمت . وحاولت ان تقهر شعورها بالخوف . فضحكت طويلا . وقال رشاد :

ـ ماذا يضحكك ؟

ـ انا .. لا شيء .. هاها . انا سعيدة .. لاننا سنتزوج ، قل لي : الست سعيدا ؟

ـ .. ..

ـ هل ستطلب يدي من زوج اختي ؟

ـ غدا . انتظريني هناك بعد المغرب

لم يعرف آنئذ ، أيضحك أم يبكي . وضغطت يده بحنان . ولكنها كانت باردة في يدها . وقالت :

ـ الا نعود الان

فاسرع يقول لها :

ـ الان ؟ .. دعينا نمشي قليلا يا نبوبة

ـ طيب . كما تشاء . لكنك متضايق الليلة .

ـ انا . لا .. انا افكر كيف احميك من الحاج محمد .

جفلت نبوية فيده . وصاحت بعصبية :

ـ الحاج محمد . الحاج محمد . الحاج زفت .

ضحك هو آنئذ . وقال وهو يضحك :

ـ طيب طيب . لا تغضبي . تعالي من هنا .

ـ الى أين ؟

ـ سنسير من هنا حتى المصرف الكبير

ـ لا . اريد ان اعود يا رشاد .

ـ لا . ليس الان

ـ طيب . كما تشاء يا رشاد

كانت المزارع ساكنة تماما : احواض القمح ، واحواض القطن ، واحواض الذرة . وفكرت نبوية انها الان بلا قطن ولا ذرة ، وانها ستعيش هذه السنة من لحمها الحي . وضايقها السكون حولها . فقالت :

ـ رشاد . فلنعد الان ،انا مستعدة ان آتي معك الى البيت ، اذا شئت

ـ طيب .طيب .. انتظريني هنا . ساقضي حاجتي وسط الذرة ، ونعود معا .

وتركها ، واختفى بين اعواد الذرة . وسمعت نبوية بعض اعواد تتكسر وهو يختفي . ثم سمعت نقيق الضفادع عاليا . وتلفتت حولها . كانت مقابر القرية مستلقية هناك . وحولت عينيها عنها سريعا . وفكرت:

« كيف يظل الانسان نائما هناك ، دائما ، دائما ؟ »

وتركزت عيناها على المنحلة المجاورة . كان النحل داخلها ساكنا . ولم تر من المنحلة سوى جدارين فقط . وطوف ذهنها في الجدارين الاخرين بقلق . وارتفعت نبضات عديدة في عروق رقبتها . وادارت رأسها نحو حقل الذرة . وصاحت في الظلمة :

ـ رشاد . رشاد

ولم يأتها جواب . وفكرت ان تجري . لكنها خجلت من فكرتها . فعادت تنادي :

ـ رشاد لن يأتي يا نبوية

***

ـ رشاد لن يأتي يا بنوية ..

لم تصدق اذنيها ، فشهقت برعب ، وكادت ان تسد اذنيها بيديها . واستدارة بسرعة نحو المنحلة . كانوا اربعة : الحاج محمد ، وطه ابنه ،

واخرين لا تعرفهما . وداخل حقل الذرة سمعها رشاد تصيح من كل قلبها :

ـ رشاد . الحقني يا رشاد

تكسر عود الذرة في يد رشاد . وومضت عيناه في الظلام . وضحك الحاج محمد ، وهز رأسه وبداه مختبئتان خلف ظهره . وقال لها :

ـ رشاد باعك يا نبوية . يا خسارة العشرة يا خسارة .

سكنت كل الاصوات في اذنيها ، عدا صوت الحاج محمد . وسمعها رشاد تصيح بجزع :

ـ باعني ؟

تكسر عود ذرة اخر في يد رشاد . وجاءها الصوت الغليظ :

ـ باعك . باعك بعشرة جنيهات يا نبوية .

لم تفهم نبوية تماما ماذا يجري . وطفرت في رأسها يد رشاد وهي تتحسس جيبه الايمن . بينما تحسس رشاد ذات الجيب بيسراه . وسمعها رشاد تقول باستسلام :

ـ هل ستضربونني ؟

اوشك رشاد ان ينفجر باكيا . وتكسر عود اخر في يده . وانفجر الحاج محمد غاضبا : جاء بيديه من خلف ظهره ، فرأت فيهما حبلا . وجاء صوته الغليظ :

ـ نضربك ؟.. ستموتين الليلة .

تكسر عود اخر تحت يد رشاد . وفكر فيما اذا كانت نبوية ستموت حقا . وشعر برغبة في ان يشرب ماء . وتطلعت نبوية حولها برعب . كانوا يقفون حولها من كل ناحية . وبحثت عن منفذ تجري منه . ولكن ساقيها لم تتحركا . لم يكن ثمة منفذ . وطفرت في رأسها صورة ابنها نائما ، والباب مغلق عليه . وسمعها رشاد تتوسل بذلة :

ـ اموت ؟.. ارحمني . انا وحيدة . وابني وحيد . مثلي .

لم تسمع سوى ضحكاته ، وهو يناول ابنه طرف الحبل ، ويمسك بطرفه الاخر . وسمعها رشاد تصرخ :

ـ تقتلني يا حاج محمد ، لانني رفضت ان اتزوجك ؟

وفكر رشاد انها قبلت ان تتزوج منه هو .

ـ اخرسي يا بنت الكلب

قالها طه . ورفسها في جنبها بحذائه . وتكسر عود اخر في يد رشاد . وسمعها وهي تتوجع وبعينين غير منظورتين ، رآها تسقط على ركبتيها . وسمعت ذات الصوت الغليظ :

ـ لا . ابتعدا انتما .. سنريحها انا وابني .

شبت نبوية واقفة . وسمعها رشاد تقول بمذلة :

ـ خذ ارضي . خذ الفدان والبقرة . سادفع ثمن قمحك . ابني امين .. ارحمني .

جلس رشاد مقعيا . وفكر انه كان عندها اغلى من الفدان والبقرة . وفكر انهم اربعة ، وان الحاج محمد وحده ضخم لا يقهر . ولف الحاج الحبل هو وطه حول عنقها بسرعة . ووقفت نبوية بينهما تتأرجح . يداها تتشبثان بالحبل ، تحاول ان تخفف الضغط الهائل على عنقها . وكانت تسمعه يقول بغيظ :

ـ لن يقول احد ، ان امرأة ، امرأة وحيدة ، مرغت ذقني في التراب وقبل ان تهوي يداها ، سمعها رشاد تقول بوهن :

ـ رشاد . رشاد

وقفزت الى رأس رشاد امنية عابرة : هو فارس يعطي هذا رفسة ، وذاك لكمة . ويضرب الحاج محمد بجبهته ، فيسيل الدم من انفه . ويفر الرابع هاربا الى بيته . و .. يحملها بين يديه . ودوى صوت الحاج محمد مناديا .

ـ تعال يا رشاد .

ادرك رشاد ان نبوية اصبحت الان جثة . ولم يتحرك من مكانه . ظل قابعا بين اعواد الذرة ، يتفصد عرق كثير من جبينه على عينيه وعنقه. وسمع اصواتهم تبتعد صوب القرية . وعادت اصوات الضفادع تطن عاليا في اذنيه . فكر انها تبكي . وسار بين اعواد الذرة . وتجنب ان يمر على نبوية ويرى جثتها . فانحدر نحو الطريق الزراعي . وعبر القناة الجافة . ولمحت عيناه المقابر . فقال لنفسه :

« ستنام نبوية هناك ، دائما ، دائما !!»

وشعر بالتعب ، فجلس على حجر . واسند كوعه على ركبته .ووضع خده على كفه !

القاهرة

سليمان فياض